

الحرية أو الطوفان

د. حاكم المطيري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله وسلم على النبي الأمين وعلى آله وصحبه
أجمعين أما بعد :

فهذه الطبعة الثانية لكتاب (الحرية أو الطوفان) بعد نفاذ الطبعة الأولى من
الأسواق في مدة قصيرة حيث كتب الله له القبول ، حتى صار من أكثر الكتب مبيعا
وطلبا ، وما ذلك إلا لأهمية ، ولشدة حاجة الأمة إلى موضوعه خاصة في هذا العصر
الذي فيه الأمة أحوج ما تكون لقيم التحرر والحرية والعدل والمساواة ، وقد عرض
لكتاب (الحرية أو الطوفان) بالذكر في الصحافة الكويتية حين صدوره قبل أربع
سنوات عدد من الكتاب والسياسيين منهم الدكتور خالد أحمد الصالح في صحيفة
(الوطن) ، والدكتور سامي خليفة في (الرأي العام) ، والدكتور عبد المحسن جمال في
(القبس) ، والدكتور البغدادي في (السياسة) ، كما عرض له الأستاذ عبد الرحمن
الجميعان في (بوابة العرب) ، كما كتب عنه عدد من الكتاب في الخليج العربي
ومصر والشام ومنهم الكاتب والمفكر المصري الأستاذ فهمي هويدي في مجلة
(المجلة) ، والمفكر السعودي الدكتور عبدالله الحامد ، وغيرهم من الكتاب والناقدين ،
وقد أضفت بعض تلك الدراسات ملحقا في آخر هذه الطبعة ، كما ألحقت بها بعض
الردود والأجوبة عن أسئلة واستشكالات بعض أهل العلم حول بعض ما جاء في
الكتاب ، وإذا كان (الحرية أو الطوفان) دراسة تاريخية لمراحل الخطاب السياسي
الإسلامي ، فسوف يصدر قريبا بإذن الله تعالى الكتاب الثاني في هذا الموضوع
وهو (تحرير الإنسان) وهو دراسة عقائدية وأصولية للخطاب السياسي الإسلامي ،
وسيجيب عن كل الاستشكالات التي أثارها بعض النقاد ، والتي تقتضي دراسة
الموضوع لا من حيث جذوره التاريخية فحسب ، بل وجذوره العقائدية والأصولية ،
ليسهل فهم الفروع التي قامت عليها ، والأحكام التي انبثقت منها ، وهو ما فصلت
فيه القول في (تحرير الإنسان) في بيان مكانة الحرية في الإسلام وأن الحرية والتوحيد
صنوان ، لا كما يتوهم الواهمون ، ممن جهلوا قيمة الحرية ، ولم يعرفوا حقيقة التوحيد!!
لقد ظلت الحرية قيمة إنسانية نبيلة تتشوف إليها المجتمعات الإنسانية على مر
عصورها حتى قامت من أجلها الثورات وبذلت في سبيلها التضحيات إذ لا معنى
لإنسانية الإنسان إلا بالحرية التي وهبها الله له كما وهبه الحياة ، ومع أنه لا يمكن

تحديد تعريف جامع مانع لمعنى الحرية غير إن للمجتمعات الإنسانية على اختلاف أديانها وتصوراتها مفاهيم مشتركة حول الحرية الفردية والمجتمعية والدولية ، ومن ذلك :

١ . أن الحرية نقيض العبودية فكل من لم يكن عبدا مملوكا لغيره فهو حر يتمتع بالحرية ، وإن كانت حرية صورية شكلية ، فهي تحرر الإنسان من سيادة أخيه الإنسان .

٢ . كما تقابل الحرية الاستبداد والطغيان فكل شعب يخضع لسيطرة حاكم دون اختياره ورضاه فهو فاقد لحرية ، وكل شعب يتمتع بحقه في اختيار السلطة دون إكراه مادي أو معنوي وتتجلى إرادته في كل ما يصدر عن السلطة من تصرفات فهو شعب حر ، وهي الحرية المجتمعية والشعبية .

٣ . والحرية أيضا نقيض الاحتلال وترادف الاستقلال فكل شعب يسوس شئونه بإرادته واختياره دون سيطرة قوة خارجية على شئونه فهو شعب حر ويتمتع بالحرية .

٤ . وكل إنسان يتمتع بفعل ما هو مباح له أو حق من حقوقه دون خوف أو إكراه فهو إنسان حر ، وكل إنسان لا يستطيع فعل ما يريده من المباحات والتصرفات والتمتع بالحقوق مع قدرته على ذلك وحاجته إليها خوفا من السلطة فهو فاقد لحرية ، وهي الحرية الشخصية الفردية في مقابل إرادة السلطة أو الجماعة .
فهذه المفردات تكاد تكون مفاهيم مشتركة بين المدارس الفكرية الإنسانية .

غير إن للحرية في لغة العرب ولغة القرآن معنى أشمل وأرحب يختلف اختلافا جذريا عن معناها في الثقافة الغربية الأوربية التي تشيع اليوم ، ففي لسان العرب (الحر نقيض العبد ، وتحرير الولد : أن يفرد له طاعة الله ، كما في قول امرأة عمران (إني نذرت لك ما في بطني محررا) ، والحر من الناس خيارهم وأفاضلهم ، وحرية العرب أشرفهم ، والحر من كل شيء أعتقه أي أكرمه وأجوده وأحسنه والحرمة الكريمة من النساء ، والحر الصقر . . .) .

فهذه المعاني لكلمة حر تدور على :

أولا :تحرر الإنسان من عبودية أخيه الإنسان ، فمن لم يكن عبدا رقيقا لغيره فهو حر ، وهذه حرية صورية شكلية .

ثانيا : تحرر الإنسان من عبودية غير الله ، فمن بذل طاعته وخضع لغير الله فهو

عبد لمن صرف له طاعته ، سواء صرفها للأوثان الحجرية ، أو الأوثان البشرية ، كالمملوك ورجال الدين ، وهذه عبودية معنوية ، ومنه حديث (تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار) .

ثالثا: تحرر الإنسان من التذلل والخنوع لغيره ، فكل من قبل الظلم ، ورضي به ، كان عبدا لمن ظلمه ، كعبودية بني إسرائيل لفرعون ، وكل من ذل لخصمه فهو عبد ، ومنه قول حسان رضي الله عنه يوم فتح مكة يخاطب أبا سفيان :

ألا أبلغ أبا سفيان عني
مغلغلة فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبدا
وعبد الدار سادتها الإمام

ومنه قول عمر في شأن القبطي المصري : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) ، مع أن القبطي لم يكن عبدا ولا رقيقا ، بل كان حرا ذميا ، غير أن عمر عد ظلم ولد عمرو بن العاص له ، واستطالته عليه بسلطان أبيه الذي كان أمير مصر ، استعبادا له ينافي حرته التي ولد عليها .

رابعا: تتخلق الإنسان واتصافه بصفات الشرف وخصال المروءة ، فكل شريف كريم هو حر ، وكل كريمة عفيفة هي حرة .

كما قال عبدالله بن حسن بن حسن :

بيض حرائر ما هم من بريبة
كظباء مكة صيدهن حرام

وهي الحرية التي يقول عنها الفضل بن يحيى (لا عوض لحر من نفسه ، ولا قيمة عنده لحرته وقدره)^(١) ، وقال عنها أحمد بن طاهر (ليس لحر من نفسه عوض ، ولا من قدره خطر ، ولا لبذل حرته ثمن ، ونعوذ بالله من المطامع الدنية ، والهمة القصيرة ، وابتذال الحرية)^(٢) .

فهذه هي الحرية في لغة العرب ، وليس منها الدعوة إلى الانحلال والتحلل من القيم الأخلاقية ، ولا يصدق على من يدعو إلى قبول الظلم والجور ، أو يدعو إلى الخنا

(١) انظر كلام الفضل بن يحيى في رسائل الجاحظ ٢٧/٢ ط ١ دار الحدائثة .

(٢) المصدر السابق .

والفجور ، بأنه يدعو إلى الحرية!

وقد كان العرب يعرفون الحرية بمعناها السياسي كما قال سعد بن ناشب
لبلال بن بردة أمير العراق لبني أمية :

فلا توعدنا يا بلال فإننا وإن

نحن لم نشقق عصى الدين أحرارُ

فلا تحملنا بعد سمع وطاعة

على خطة فيها الشقاق أو العارُ

وعصى الدين هنا أي طاعة السلطان ، أي إننا وإن لم نخرج على السلطة فإننا
أحرار لا نقبل الظلم ولا نرضاه تحت ذريعة الطاعة للسلطة ، وإننا متى تعرضنا لذلك
خرجنا عليها وشققنا عصى الطاعة لها .

لقد كان واضحا منذ ظهور الإسلام أنه دعوة للحرية الإنسانية بمفهومها
الشمولي ، فشهادة : (أن لا إله إلا الله) ، نفي صريح لكل أنواع العبودية والطاعة
والخضوع والتذلل لغير الله عز وجل ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون
الله﴾^(١) ، فالناس جميعا متساوون في إنسانيتهم وحریتهم ، ولا عبودية إلا لله ، ولا
ربوبية ولا سيادة لأحد على أحد ، وإنما السيد هو الله وحده ، فهو الذي يستحق
الخضوع والطاعة وحده ، وقد كرم الله الإنسان فقال ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾^(٢) ،
وجعل الإنسان خليفة في الأرض ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾^(٣) .

ولهذا أكد النبي ﷺ هذا المعنى في أحاديث كثيرة كما في قوله ﷺ : (السيد
الله تبارك وتعالى)^(٤) ، لبيان أن السيادة المطلقة هي لله ، والبشر جميعاً إخوة ، لا
سيادة لأحد منهم على أحد .

فهذه بعض معاني الحرية التي طمست معالمها ، ودرست آثارها في الثقافة

(١) آل عمران ٦٤ .

(٢) الإسراء ٧٠ .

(٣) البقرة ٣٠ .

(٤) رواه أبو داود ١٥٤/٥ ، ح ٤٨٠٦ ، وأحمد ٢٤/٤ و ٢٥ ، وقال في الفتح ١٧٩/٥ : رجاله ثقات
وصححه غير واحد ، قال الخطابي كما في حاشية أبي داود : (السيد الله : يريد أن السؤدد حقيقة
لله عز وجل) .

العربية المعاصرة عقوداً طويلة تارة باسم الدين ، وتارة باسم القومية ، وتارة باسم الاشتراكية ، واليوم تصادر حرية أم كاملة بأوطانها وشعوبها لتصبح تحت سيطرة الاستعمار والاحتلال الأجنبي باسم الديمقراطية والليبرالية!

فعسى أن يسهم كتاب (الحرية أو الطوفان) ، وكتاب (تحرير الإنسان) ، في بعث الروح من جديد في أجيال جديدة ربما ولدت وعاشت في التيه والرفاه غير أنها مع ذلك وعلى كل حال لم تستمر العبودية للطغاة ولم تتلوث عقولها بثقافة الخطاب السلطاني الذي يجعل من الجبن كياسة ، ومن الخنوع سياسة ، ومن الخور حكمة ، ومن الخيانة للأمة شرفاً ومجداً!

ولا أقول لأعداء الحرية والتحرر ممن صنعهم الاستعمار على عينه ، إلا كما قال العلامة محمد البشير الإبراهيمي الجزائري - رئيس جمعية علماء الجزائر بعد مؤسسها العلامة عبد الحميد ابن باديس - الذي كان يخاطب آنذاك الاستعمار الفرنسي بقوله : (وما ظن الاستعمار بجمعية العلماء؟ أيظن أنها تمل وتكل فتضعف فتستكين؟ لا والله ، ولقد خاب ظنه وطاش سهمه ، إنما يكل من كان في ريب من أمره ، وفي عماية من عمله . . فأما إذا أبت إلا أن تجعل ديننا جزءاً من سياستها ، فسنتقل معها إلى الميدان الذي أرادته واختارته لنفسها ولنا ، وسنقود كتائب السياسة في أضيق موارجلها ، جالبة علينا ما جلبت ، وسوف تجدنا - إن شاء الله - عند سوء ظنها ، وسوف تجدنا - كما عرفتنا - حيث تكره لا حيث تحب ، وسوف نعلمها فقهاً جديداً ، وهو أن أرض الجزائر حتى سجونها مساجد لإقامة الصلوات ، وإن كل عود فيها حتى المشائق منابر خطبة ومطية خطيب ، وإن كل صخره فيها مئذنة ينبعث منها الله أكبر ، وسوف يريه بنا إن عاقبة المعتدي على الإسلام وخيمة .

ونحن سياسيون منذ خُلِقنا ، لأننا مسلمون منذ نشأنا ، وما الإسلام الصحيح بجميع مظاهره إلا السياسة في أشرف مظاهرها ، وما المسلم الصحيح إلا المرشح الإلهي لتسيير دفتها أو لترجيح كفتها ، فإذا نام النائمون منا ، حتى سلبت منهم القيادة ، ثم نزعنا منهم السيادة ، فنحن - إن شاء الله - كفارة الذنب وحبل الطنب .

نحن سياسيون طبعاً وجبلةً ، ونحن الذين أيقظنا الشعور بهذا الحق الإلهي المسلوب ، فما سار سائر في السياسة إلا على هدانا ، وما ارتفعت فيها صيحة إلا

كانت صدى مردداً لصيحاتنا ، ولكننا كنا لا نريد أن نخلط شيئاً كل وسائله حق ، بشيء بعض وسائله باطل ، وأن نميز بين ما لا جدال فيه مما فيه جدال ، وكنا نريد أن نبدأ بأصل السياسات كلها وهو الدين ؛لنبنى عليه كل ما يأتي بعده ، فنسلم ونحن مسلمون ، ونخاصم ونحن مسلمون ، ونصادق أو نعادي ونحن مسلمون ، فيكون في إسلامنا ضمان للمعدلة حتى مع حقوقنا ، نحن سياسيون لأن ديننا يعد السياسة جزءاً من العقيدة ، ولأن زمننا يعتبر السياسة هي الحياة ، ولأنها آية البطولة ، ولأن وضعها يصير السياسة ألزم للحياة من الماء والهواء ؛ولأن السياسة نوع من الجهاد ، ونحن مجاهدون بالطبيعة ، فنحن سياسيون بالطبيعة ، ولأن الاستعمار الفرنسي بظلمه وعسفه لم يغرس في الجزائر إلا ثمرتين : بغض كل جزائري لفرنسا حتى الأطفال ، وصيرورة كل جزائري سياسياً حتى الأئمة .

ليت الاستعمار يأخذ من هذه الصراحة ما يغريه بزيادة التشدد ، ظناً منه أنه يشغلنا بجانب عن جانب ، ويلهينا بديننا عن ديننا ، حتى يعلم أننا أصبحنا - والفضل له - لا يلهينا شيء عن شيء ، وأننا إذا لم نستطع شيئاً استطعنا أشياء ، وأننا إذا لم نستطع أن نكون عطشاً لخصمنا كنا كدرًا في الماء ، وأننا إذا حُرمتنا قمح الأرض زرنا أشواكها ، وأنه لم يبق قلب في الجزائر يتسع لذرة من حب فرنسا ، أو يتسع لخيطة أمل فيها ، وليعلم أخيراً أن الله للظالمين بالمرصاد .

ولا نقول ربحتنا أو خسرتنا ، فالريح والخسارة من مفردات قاموس التجار ، أما الجهاد الذي غايته تثبيت الحقائق الإلهية في الأرض ، وغرس البذور الروحية في الوجود ، فغلته سماوية ، لا تحمل معاني التراب ، متساوية لا تسف إلى ما تحت السحاب ، وأما المجاهدون في سبيل ذلك فلا يعدون الريح والخسارة في آرابهم ، ولا يدخلون الوقت طال أم قصر في حسابهم^(١) .

هذا وأتوجه بالشكر الجزيل للمؤسسة العربية للدراسات والنشر ومديرها الأستاذ

(١) انظر دور العلماء المسلمين في ثورة الجزائر للنعمي ص ١٣٧-١٤٠ .

وأدعو كل عربي حر أبي أن يجعل كلمة البشير الإبراهيمي هذه معلقة يحفظها أبناءه وأهل بيته عن ظهر قلب ، وورداً يتلونه صباح مساء ، فإنها حقيقة وحرية بذلك لما تبعته في الروح من عزة وكرامة وأنفة لا يعرفها إلا كل حر شريف ، في زمن قل فيه الرجال الأحرار والأبطال الثوار!

الفاضل ماهر كيالي وللأخ الأديب حمزة جبر على اهتمامهم ومتابعتهم الحثيثة من
أجل صدور هذه الطبعة في أسرع وقت ، وأسأل الله التوفيق والسداد في القول
والعمل وأن يجعل عملنا كله خالصاً لوجهه إنه ولي ذلك والقادر عليه .

الكويت

السبت ٣ جمادى الآخر ١٤٢٩

الموافق ٢٠٠٨/٦/٧ م